مجلة جامعة الملك سعود، م١١، *الآداب* (١)، ص ص ٢٩-٧٨ (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

النظم القرآني وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم

رجاء محمد عودة

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب،
جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في ٢٨/ ٨/ ١٤١٧هـ، وقبل للنشر في ١٧/ ١١/ ١٤١٧هـ)

ملخص البحث. تتناول هذا الدراسة خصوصية النظم القرآني وأثره على بيان وتعميق مقاصد التنزيل الحكيم، حيث ترتقي المدارك إلى آفاق البيان المعجز، بفقه أدوات الصياغة: اللغوية، والصرفية، والبلاغية، فتتجلى آماد لا حدود لها من جلال الإعجاز، وعمق المعاني، وبعد الإيحاءات، وسمو الغايات.

وقد نوهت الدراسة بأن هذا الفهم العميق لكتاب الله يقتضي فهم الوظيفة الدلالية لكل جزئية تعبيرية في الكتاب الكريم، حتى على صعيد الاستخدام الحرفي، الذي ينهض بوظيفة معرفية مميزة لا يؤديها أي حرف آخر قد يقوم مقامه، حيث يختلف المعنى باختلاف الاستخدام. وهذا ما يدعم الارتباط الوثيق بين المقام والمقال، أو بين النظم ومقاصد التشريع، مما يجعلهما نسيجًا تعبيريًا واحدًا؛ يتجلى على صعيد: عموم السياق، وعلى مستوى الآية الواحدة، وعلى نطاق المفردة القرآنية، ومن خلال الاستخدام الحرفي. وقد عرضت الدراسة لهذه الجوانب الأربعة، معتمدة على الشواهد القرآنية والمعايير اللغوية، مؤكدة الارتباط بين إعجاز النظم، وإعجاز التشريع - إن جاز هذا التعبير.

وارتكزت هذا الدراسة أساسًا لبيان مقاصد التشريع من خلال إعجاز النظم، مفصحة عن مفاهيم عقدية، وضوابط اجتماعية، وقيم سلوكية، ومعايير لغوية، متآلفة كلها في وحدة واحدة من التعبير، واضعة المنهج الأمثل لحياة الإنسانية، لتنتظم حركة الحياة بمنهج الله.

تمهيد

القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر، ومعجزتها البيانية الخالدة، جعله الله آخر رسالاته لهداية البشرية، وتحقيق مصالحها الدينية والدنيوية. قال تعالى: ﴿ وأنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالْحَق مُصَدِّقًا لمَا بَيْنَ يَدَيْه منَ الْكتَاب وَمُهَيْمنًا عَلَيْه﴾ .⁽¹⁾

فالقرآنَ هو الدستَورَ الدائم لإصلاحَ الخلقَ، وقانون السماء لهداية الأرض، وحجة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومعجزته الكبرى، وملاذ الدين الأعلى، يُستند إليه في العقائد، والعبادات، والمعاملات.

ومن هنا تضافرت جهود العلماء في العناية به، والاستفادة منه، واتخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة، تجلّت في جمعه وتدوينه، وترتيله، وإعرابه، وتنوع أدائه، ووصف قراءاته وقرائه، وبيان محكمه ومتشابهه، وبيان ناسخه ومنسوخه، وفواتيح سوره وخواتيمها، وأسباب نزوله، إلى آخر ما هنالك من موضوعات تنضوي في ثنايا هذه الموسوعة القرآنية.

بيد أن أعلى هذه المباحث قدراً، وأعظمها شأنًا بيان خصائصه التي كانت وحيًا معجزاً، أتاحت لأرباب البيان استنباط علم البلاغة مأخوذين بسحر بيانه، وروعة إعجازه لما احتواه من ذروة الأداء الفني الذي لم يعهدوا نظيره في الشعر العربي. يقول محمود شاكر عن مكانة الشعر عند العرب: «هذا الشعر الذي كان حين أنزل الله القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم نوراً يضيء ظلمات الجاهلية، ويعكف أهله لبيانه عكوف الوثني للصنم، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط، فقد كانوا عَبَدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الأوثان! وقد سمعنا بمن استخف منهم بأوثانهم، ولم نسمع قط بأحد استخف ببيانهم.»⁽²⁾

ولهذا أُلِّف في إعجاز القرآن كُتب مستقلة تجلَّت في المصنفات الكلامية والبلاغية والنقدية، التي كونت في مجملها منظومة معرفية مازالت إلى الآن موضع المهتمين

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٨.

(٢) انظر: مالك بن نبي، *الظاهرة القرآنية*، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط٤ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٧م)، ٤٨.

بالكشف عن أسرار الإعجاز القرآني : اللغوي والعلمي .

وهو إلى جانب ذلك «مائدة يتغذى منها العقل والروح ، فتتخلق منها ملكات علوية ، ووجدانات ربانية ، بها يسمو الإنسان ويعلو ، وبها يرتفع على هذا الضعف الإنساني الكامن فيه ، وينتصر على هذه النزعات المندسة في كيانه .»(٣)

وإذا كان القرآن يمثل الأنموذج الذي عجزت أمة البيان عن معارضته فإن محصلة ذلك تبرز مكانة القرآن اللغوية ، وأنه المعجزة الباقية ببقاء الرسالة المحمدية ، لتبقى الرسالة محروسة بالمعجزة . وهذه الدراسة تمثل غرسة صغيرة في هذا الحقل المتسع الأرجاء ، بغية فهم الجانب اللغوي ، والصرفي ، والبلاغي ، وأثر ذلك على مقاصد التنزيل الحكيم ؛ أو بعبارة أخرى التأمل العميق للنظم القرآني وما يتميز به من خصوصية تعبيرية تجلي آفاق البيان المعجز ، فتتضح أبعاد المنهج القويم .

والنظم لغة : ضم الشيء إلى الشيء في نظام وتناسق ؛ جاء في *لسان العرب* : النظم : التأليف ، ونَظَمْتُ اللؤلؤ : أي جمعتُه في السلك ، والتنظيم مثلُهُ ، ومنه نَظَمْتُ الشعر ونظَّمتُه ، وكُلُ شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقدَ نظمتُه ، والنَظْمُ : المنظوم ، والانتظام : الاتساق .(٤) ونظم القرآن هو «عبارتُه التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة .»(٥)

أما النظم اصطلاحًا فلعل أفضل تعريف له ماجاء عن صاحب نظرية النظم عبد القاهر الجرجاني : «اعلم أن ليس النظم إلا تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه «علم النحو» وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها . . . فلا ترى كلامًا قد وصف

---

(٣) عبد الكريم الخطيب ، *الإعجاز في دراسات السابقين* (القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٤م) ، ٧ .

(٤) جمال الدين محمد بن مكرم ، ابن منظور ، *لسان العرب* (دمشق : مكتبة النوري ، د . ت .) ، مادة : «نظم .»

(٥) مجمع اللغة العربية ، *المعجم الوسيط* ، إشراف عبد السلام هارون (القاهرة : مطبعة مصر ، ١٩٦١م) ، مادة : «نظم» .

بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية، وذلك الفَضل إلىَ معاني النحو وأحكامه . . . . »(٦)

وعلى هذا فالنظم الذي نرمي إليه هو: إبراز تآلف الألفاظ مع المعاني تآلفًا ينهض بجلاء الفكرة. وجماليات التعبير، وفق معايير معاني النحو وأحكامه، من خلال ما يحفل به التعبير القرآني من خصائص: لغوية، صرفية، بلاغية، تجلِّي إيحاءاته، وظلال معانيه، وسمو غاياته.

ولدى تأمل النظم القرآني الذي سنتناوله في تضاعيف هذه الدراسة نجده قد تمثل في أربعة مباحث: تراءى الأول منها على صعيد السياق القرآني بعامة، والثاني على مستوى الآية الواحدة، والثالث من خلال المفردة القرآنية، والرابع على نطاق الاستخدام الحرفي.

وقد انضوى في ثنايا كل مبحث ثلاثة مسارات يتناول كل منها في ضوء المبحث الواحد ما يكشف عن خصوصية النظم القرآني بأدوات الصياغة: اللغوية، والصرفية، والبلاغية، وأثر ذلك في تعميق مقاصد التنزيل المحكم.

أولاً: النظم في السياق القرآني

ليس بجديد القول إن إعجاز النظم القرآني وخصوصيته التعبيرية تجلت في القرآن بعامة؛ فالقرآن معجز كله بلفظه ومعناه. يحمل في ذاته دليل إعجازه، راسمًا القانون الإنساني الأعلى من خلال فصاحة ألفاظه، وإصابة معانيه، وجمال إيقاعه، وبُعد إيحاءاته، مما جعل بلاغة القرآن: «بلاغة أسلوب تبهر العقول، وتسلب القلوب، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلاّ علاّم الغيوب.»(٧)

ولما كان هذا الأسلوب القرآني المعجز قد أعجز أرباب الفصاحة، وأساطين

---

(٦) عبد القاهر الجرجاني، *دلائل الإعجاز*، تحقيق محمود شاكر (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٤م)، ٨١- ٨٣.

(٧) جلال الدين السيوطي، *الإتقان في علوم القرآن*، ط٣ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥١م)، ١: ٣.

البلاغة عن محاكاة آية واحدة من آياته فإن هذا العجز البشري - في نظري - يتداعى إلى فقه الإحاطة بكل جوانب إعجازه، مما يقتضي الوقوف عند بعض مواطن هذا الإعجاز، أو هذا النظم من خلال خصائصه: اللغوية، والصرفية، والبلاغية، تلك التي قد تآلفت في وحدة واحدة من التعبير.

وعلى الرغم من أن هذه الخصائص التعبيرية: اللغوية والصرفية والبلاغية، قد تداخلت فيما بينها سواء في اللون الواحد، أو بينها مجتمعة، فقد رجحنا في تصنيفها الجانب الذي يتفق مع طبيعة الدراسة وهدفها، ومن هذه الخصائص:

١ - خصائص لغوية

تعددت وتنوعت وجوه الصياغة اللغوية على صعيد السياق القرآني مبرزة آفاق المعجزة اللغوية الكبرى. ومن هذه السمات: دقة معاني الألفاظ القرآنية، التي وضعت القول الفصل لظاهرة «الترادف اللغوي» التي مثلت قضية شائكة بين علماء العربية شغلتهم ردحًا من الزمن، واختلفت مذاهبهم فيها. بيد أن استقراء السياق القرآني لمواضع الترادف اللفظي يجعل لكل كلمة خصوصية دلالية لا يقوم مقامها كلمة سواها من الألفاظ المقول بترادفها. ومن الألفاظ المقول بترادفها: لفظي: «الزوجة» و«المرأة» أو بتحديد أدق «الزوج» «المرأة.» تقول عائشة عبد الرحمن: «وترى البيان القرآني يستعمل لفظ «زوج» حيثما يتحدث عن آدم وزوجه، على حين يستعمل لفظ «امرأة» في مثل امرأة العزيز، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة فرعون. وقد يبدو من اليسير أن يقوم أحد اللفظين مقام الآخر، وكلاهما من الألفاظ القرآنية، فنقول في «زوج آدم» مثلاً امرأة آدم . . . وذلك ما يأباه البيان المعجز.»(٨)

ثم تعلل عائشة عبد الرحمن مغزى الحكمة في تباين استخدام هذين اللفظين: «ونتدبر سياق استعمال القرآن للكلمتين فيهدينا إلى سر الدلالة: كلمة «زوج» تأتي حين تكون الزوجية هي مناط الموقف: حكمة وآية، أو تشريعًا وحكمًا، في آية الزوجية،

---

(٨) عائشة عبد الرحمن، *الإعجاز البياني للقرآن* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م)، ٢١٢.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءايَاته أنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أنفُسكُمْ أزواجاً لِّتَسْكُنُواْ إلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. (٩) ﴿وَالَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا منْ أَزْوَاجنَا وَذُرِّيَّاتنَا قُرَّةَ أَعْيُن وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقينَ إمَامًا﴾(١٠) . . . . . فإذا تعطلت آيتها من السَكن والمَودة والرَحمة بخيانةً أو تباين في العَقيدة، فامرأة لا زوج: ﴿امرأةُ الْعَزيز تُرَاودُ فَتَاهَا عَن نَّفْسه﴾، (١١) ﴿امْرَأَةَ نُوح وامْرأَةَ لُوط كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْن من عبادنَا صَالحَيْن فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنيَا عَنْهُمَا منَ اللَّه شَيْئًا﴾(١٢) . . . «امرأة فرعونَ» وقَد تَعطلتَ آية الَزوجية بينهما بإيمانها وكفره، (١٣) وحكمة الزوجية في الإنسان وسائر الكائنات الحية من حيوان ونبات هي اتصال الحياة بالتوالد، وفي هذا السياق يكون المقام لكلمة زوج . . . فإذا تعطلت حكمة الزوجية في البشر بعقم، أو ترمل، فامرأة لا زوج، كالآيات في امرأة إبراهيم(١٤) وامرأة عمران. (١٥)

وتوالي عائشة عبد الرحمن استقراء مواطن اختلاف الدلالة بين لفظي «الزوج والمرأة» مبينة أن عنصر الإنجاب عامل آخر لاستخدام لفظ «الزوج» دون لفظ «المرأة» فتقول: «ويضرع زكريا إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَت امْرَأَتي عَاقرًا فَهَبْ لي من لَّدُنكَ وَليًّا﴾(١٦) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَني الْكبَرُ وَامْرَأَتي عَاقرٌ﴾، (١٧) ثم لما استَجاب له ربه، وحققتْ الزوجيَة حكمتها كانتَ الآيَة (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾. (١٨) وفي آيات التشريع تتعلق الأحكام بالزوج والأزواج

---

(٩) سورة الروم، الآية ٢١.

(١٠) سورة الفرقان، الآية ٧٤.

(١١) سورة يوسف، الآية ٣٠، والآية ٥١.

(١٢) سورة التحريم، الآية ١٠.

(١٣) سورة التحريم، الآية ١١.

(١٤) سورة هود، الآية ٧١؛ سورة الذاريات، الآية ٢٩.

(١٥) سورة آل عمران، الآية ٣٥.

(١٦) سورة مريم، الآية ٥.

(١٧) سورة آل عمران، الآية ٤٠.

(١٨) سورة الأنبياء، الآية ٩٠.

حين تكون الزوجية قائمة: واقعًا أو حكمًا؛ كأحكام المواريث، وعدة اللواتي توفي أزواجهن.(١٩) أما حين تنقطع العلاقة الزوجية بطلاق أو إيلاء، فالأحكام متعلقة بالنساء لا بالأزواج».(٢٠)

وعلى ضوء ما تقدم، نستطيع تبين المعايير التي ينبغي توافرها حتى تحظى المرأة بلقب الزوجة، وهي: أن تكون العلاقة الزوجية قائمة بين الزوجين، وأن تكون هذه العلاقة قد توطدت بالتآلف الفكري والنفسي والحسي، وذلك بأن تكون قد أنجبت له، وعلى دينه، وذات وفاء له. فإن اختل عنصر واحد من هذه العناصر كانت «امرأة» لا «زوج.»

ومع استقراء السياق القرآني الذي يشكل مرجعية دلالية تحسم قضية الترادف اللفظي مانجده من تحديد مفهوم «الأب» و«الوالد» فمفهوم الأب أعم وأشمل من الوالد؛ إذ يندرج في تضاعيفه معنى: الجد، العم، الأب الوالد، وهذا ما نلحظه في قوله تعالى حكاية على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.(٢١) فَالأبوة هَنا بمعنَاها الشَامل تضَمنت: الجَد «إبراهيم» والعَم «إسماعيل» والأب الوالد «اسحق.»

ومن الألفاظ الأخرى التي نقف على مؤداها الدلالي المحدد من السياق القرآني ما نجده في لفظتي «الواحد» و «الأحد.» فلفظة «الأحد» تشع دلالتها في آفاق عدة تحدد خصوصيتها المعجمية؛ منها: أنها صفة من صفات الله تعالى في: ذاته، وصفاته، وأفعاله. وقد ورد لفظ «أحد» كصفة من صفات الله جل جلاله مرة واحدة في القرآن الكريم: ﴿قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ﴾.(٢٢) ومن خصوصية هذا اللفظ أنه يستوي فيه المذكر والمؤنث ﴿يَا نِسَآءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾،(٢٣) بخلاف «الواحد» فلا يقال

---

(١٩) سورة البقرة، الآية ٢٤٠.

(٢٠) عبد الرحمن، *الإعجاز البياني*، ٢١٢ - ٢١٤.

(٢١) سورة البقرة، الآية ١٣٣.

(٢٢) سورة الإخلاص، الآية ١.

(٢٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٢.

«كواحد من النساء» بل «كواحدة». (٢٤)

وفضلاً عن ذلك فلفظ «الأحد» تنسحب دلالته على الإفراد والجمع ﴿ فَمَا منكُم مِّنْ أَحَد عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾(٢٥) إلى جانب أن هذا اللفظ يُشتق منه صيغة للجمع، فيقال: «الآحدون» و«الآحاد.» أما «الواحد» فلا جمع له من لفظه، إنما يقال: اثنان، ثلاثة، أربعة . . . إلخ. غير أن لفظ «الواحد» قد يطلق على أكثر من شيء: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، (٢٦) وهم يقصدون بالطعام الواحد «المن والسلوى» إذ كانوا يأكلون أحدهما بالآخر، ولذلك قالوا: طعام واحد. (٢٧)

أ - اختلاف الدلالة باختلاف بنية الكلمة:

والسياق القرآني يعد المرجعية الدلالية للألفاظ التي تختلف معانيها باختلاف حركة بنيتها اللغوية، وهذا الاختلاف رغم تعدده المعنوي يلتقي حول الجذر اللغوي للكلمة؛ من هذه الكلمات التي وردت بمعان عدة، كلمة «الجنة» التي شكلت مثلثًا دلاليًا تراءى بفتح الجيم، وكسرها، وضمها، علمًا بأن الجذر اللغوي «جنن» يدور حول الغطاء والستر.

ولدى تأمل هذا التعدد الدلالي «للجنة» بدءًا من فتح الجيم، فنجدها تأتي بمعنى دار النعيم التي أعدها الله لعباده المتقين: ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . (٢٨) وتأتي أيضًا بمعنى الحديقة ذات النخل والشجر: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ . (٢٩) وكلتا الجنتين تضمنتا معنى الستر والغطاء لكثرة الأشجار وكثافة الأغصان. و«الجِنة» - بكسر الجيم - تدل على عالم

---

(٢٤) *دائرة المعارف الإسلامية* (القاهرة: شركة سفير، د. ت.)، ٥: ٢٨١- ٢٨٢.

(٢٥) سورة الحاقة، الآية ٤٧.

(٢٦) سورة البقرة، الآية ٦١.

(٢٧) *دائرة المعارف الإسلامية*، ٥: ٢٨٢.

(٢٨) سورة الزخرف، الآية ٧٢.

(٢٩) سورة القلم، الآية ١٧.

الجن مقابل عالم الإنس: ﴿من الْجنَّة والناس﴾، (٣٠) كذلك تدل على عالم الملائكة ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾، (٣١) وذلك لاستتار الجن والملائكة عن الأنظار. كما أن الجنة – بكسر الجيم – تدل على الذي أصابه الجنون فحجب عقله ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾. (٣٢) ويرد معنى «الجُنَّة» بضم الجيم، ليدل على الستر والوقاية على سبيل التعبير المَجازي ﴿ اتَّخَذُواْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله﴾(٣٣) أي اتخذوا أيمانهم ستراً وغطاءً لنفاقهم ليوهموا بصدق اعتقادهم.

ب – البعد الدلالي للمشترك اللفظي

ويطلعنا السياق القرآني على ضرب آخر من التنوع اللفظي، وهو ما يطلق عليه المشترك اللفظي، الذي تنهض فيه اللفظة بمعان عدة، وهذا النوع أطلق عليه علماء الدراسات القرآنية «النظائر»، «وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهًا وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر.»(٣٤) ومن هذه الألفاظ التي أوردها السيوطي في كتابه *الإتقان في علوم القرآن* «الهدى» حيث جاءت على سبعة عشر وجهًا:

- بمعنى الثبات: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. (٣٥)
- والبيان: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾. (٣٦)
- والدين: ﴿ إِنَّ الْهُدَى هُدَى الله﴾. (٣٧)

---

(٣٠) سورة الناس، الآية ٦.

(٣١) سورة الصافات، الآية ١٥٨.

(٣٢) سورة المؤمنون، الآية ٧٠.

(٣٣) سورة المنافقون، الآية ٢.

(٣٤) السيوطي، *الإتقان*، ١: ١٤١.

(٣٥) سورة الفاتحة، الآية ٥.

(٣٦) سورة البقرة، الآية ٥.

(٣٧) سورة آل عمران، الآية ٧٣.

- مواضع الصلاة: ﴿ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ ، (٦٤) ﴿لاَتَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ﴾ . (٦٥)

ومن الكلمات القرآنية ذات المعاني المتَعددة: «الأُمة» وتأتي وفق معان عدة، منها:

- الدين ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾(٦٦) وقيل: لا أُمة له: أي لا دين له.
- وكل جيلَ من الناس أمة: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدَةً﴾ . (٦٧)
- والإمام المُقتدى به: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ . (٦٨)
- وجماعة العلماء: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ . (٦٩)
- وفترة زمنية: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد حين. (٧٠)

ج - ألفاظ جديدة أحدثها نزول القرآن

ويطلعنا السياق القرآني على ألفاظ لم يسبق استخدامها قبل نزول القرآن، حيث دعت الرسالة المحمدية لظهور ألفاظ تواكب الحياة الجديدة، مما أوجد نوعًا من التجديد اللفظي في اللغة، يقول محمد المبارك: «من الألفاظ ماهو جديد في استعماله للمعنى الذي استعمل له، «كالحاقة» و«القارعة» و«الواقعة» وكلها ألفاظ معروفة من حيث اشتقاقها، ولكنها جديدة في إطلاقها على معنى يوم القيامة. . . وكذلك لفظ «الحساب» فقد استعمل في السورة بمعنى حساب الإنسان على أعماله في الحياة الدنيا لا بالمعنى العام.»(٧١)

---

(٦٤) سورة الحج، الآية ٤٠.

(٦٥) سورة النساء، الآية ٤٣؛ السيوطي، *الإتقان*، ١: ١٤٢.

(٦٦) سورة الزخرف، الآية ٢٢.

(٦٧) سورة البقرة، الآية ٢١٣.

(٦٨) سورة النحل، الآية ١٢٠.

(٦٩) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

(٧٠) سورة يوسف، الآية ٤٥؛ أحمد بن فارس، *مقاييس اللغة*، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٦هـ)، ١: ٢٧-٢٨.

(٧١) محمد المبارك، *دراسة لنصوص من القرآن*، ط٤ (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣م)، ٤٥.

وإلى جانب الألفاظ التي استخدمها القرآن الكريم في معان جديدة كانت هناك ألفاظ ابتدأها التعبير القرآني ابتداءً مثل: «الفرقان، الكفر، الإيمان، الإشراك، الإسلام، النفاق، الصوم، الزكاة، التيمم، الركوع، السجود، وغير ذلك من ألفاظ الدين الحنيف.»(٧٢) «وكل ذلك بفضل القرآن الكريم فهو الذي حفظ العربية من الضياع ... وثاني آثاره أنه حول العربية إلى لغة ذات دين سماوي باهر.»(٧٣)

٢ - خصائص صرفية

شكلت الخصائص الصرفية المسار الثاني في إطار مبحث السياق القرآني، إذ شكلت مع الخصائص اللغوية ركيزة معرفية مشتركة لبيان خصوصية النظم القرآني وتعميق مقاصده، ومن هذه السمات ما نجدها قد كشفت عن أبعاد معرفية تنظم حياة المجتمع المسلم من خلال الدور الوظيفي للجمع والإفراد حققت بعض صيغ الجموع بعداً دلاليًا جسدت قانون التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي، وذلك من خلال تتبع صيغة جمع «أخ» في السياق القرآني؛ فهذه الصيغة نجدها قد جُمعتْ على «إخوة» و«إخوان» وكل واحدة نهضت بمؤدى دلالي خاص؛ فصيغة «إخوة» أبانت عن أخوة الدم والنسب: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾(٧٤) ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾. (٧٥)

أما صيغة «إخوان» فنهضت بمعنى أخوة المبدأ والمنهج حتى وإن كان المتآخون من جنس مختلف: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾. (٧٦)

ومع هذه الخَصوصيةَ لكلتا الصَيغتين نجد أنَ أَخوة الهدف والمنهج ترقى وتتسامى

---

(٧٢) شوقي ضيف، *تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي*، ط٦ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م)، ٣٢.

(٧٣) ضيف، *تاريخ الأدب العربي*، ٣٢.

(٧٤) سورة يوسف، الآية ٥٨.

(٧٥) سورة النساء، الآية ١١.

(٧٦) سورة الإسراء، الآية ٢٧.

إلى مصاف أخوة النسب، فيصبح إخوان الدين أخوة في النسب: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.(٧٧) ووفق هذا المبدأ الأخوي يجد المؤمن الحق أن المسلمين كُلَّهم رحمٌ له عندما يَسلسل أنسابهم. ومصداق ذلك أن مريم البتول عندما جمعتها مع هارون صفة الصلاح والتقوى، ناداها القرآن ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾(٧٨) مع أن بينهما أجيالاً؛ هارون من عهد موسى، ومريم البتول والدة عيسى.

والسياق القرآني يطلعنا على لون آخر من الصياغة الصرفية لصيغتي: الإفراد والجمع، مما يفصح عن مآل الابتعاد عن المنهج الرباني، وأثر ذلك على كيان المجتمع المسلم؛ من ذلك مانجده في إفراد «النور» وجمع «الظلمات» وإفراد «الحق» وجمع «الباطل.» وهذا المغزى الدلالي يبينه لنا صاحب *محاسن التأويل*: «وتأمل كيف قال تعالى: ﴿ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ﴾(٧٩) فوحَّده، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ فجمعها، فإن الحق واحد: هو صراط الله المستقيم، الذي لاصراط يوصل سواه... بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة، ولهذا يفرد الله سبحانه «الحق» ويجمع «الباطل» كقوله تعالى: ﴿الله وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.(٨٠) وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَاتَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(٨١) فجمع سبل الباطل، ووحَّد طريق الحق.»(٨٢)

---

(٧٧) سورة الحجرات، الآية ١٠.

(٧٨) سورة مريم، الآية ٢٨.

(٧٩) سورة البقرة، الآية ١٧.

(٨٠) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

(٨١) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

(٨٢) محمد جمال الدين القاسمي، *محاسن التأويل*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط٢ (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م)، ٢: ٦٢.

٣ - خصائص بلاغية

مثلت أدوات الصياغة البلاغية المسار الثالث للنظم القرآني في ثنايا مبحث السياق القرآني العام، وقد تآزرت مع نظيرتيها: اللغوية والصرفية، لتشكل أرضية مشتركة لخصوصية التعبير القرآني وأثرها في الإفصاح عن أهداف الكتاب الكريم، ومن هذه السمات البلاغية: التوظيف الدلالي للذكر والحذف.

ونتلمس هذه السمة البلاغية في إسناد الخيرات للمنعم، وحذف الفاعل في مقابلتهما؛(٨٣) فنجد في قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(٨٤) قد أضاف النعمة للمنعم، وحذف فاعل الغضب في ﴿الْمَغْضُوب عَلَيْهِمْ﴾. (٨٥)

ويعلل العلامة ابن قيم الجوزية علة هذا التوظيف البلاغي: «إن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام. والعدل والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما.»(٨٦)

ثم يؤكد ابن قيم الجوزية على اطراد هذه السمة في مواضع أخرى من السياق القرآني وفق هذه الخصوصية الدلالية، منها ماجاء على لسان مؤمني الجن: «﴿وأَنَّا لاَ نَدْري أَشَرٌّ أُريدَ بمَن في الأَرْض أَمْ أَرَادَ بهمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾.(٨٧) ومنه قول الخضر في شأن الفتية: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعيبَهَا﴾،(٨٨) وقوله في شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ)،(٨٩) وقوله تعالى: ﴿أُحلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئكُمْ﴾،(٩٠) وقوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحمُ

---

(٨٣) ابن قيم الجوزية، *مدارج السالكين*، تحقيق محمد حامد فقي (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٦م)، ١: ١٢.

(٨٤) سورة الفاتحة، الآية ٧.

(٨٥) سورة الفاتحة، الآية ٧.

(٨٦) ابن قيم الجوزية، *مدارج السالكين*، ١: ١٢.

(٨٧) سورة الجن، الآية ١٠.

(٨٨) سورة الكهف، الآية ٧٩.

(٨٩) سورة الكهف، الآية ٨٢.

(٩٠) سورة البقرة، الآية ١٨٧.

الحمد فكان «حامد.» أما «أحمد» فقد زاد في أداء الحمد عن «حامد» فكان «أحمد.»

ويأتي اسم «محمّد» على صيغة مبالغة «مفعَّل» من اسم المفعول «محمود» الذي وصف بكثرة الحمد من الآخرين فكان محمودًا.

بيد أن صيغة المبالغة التي ورد فيها اسم «محمَّد» تحمل في ثناياها زيادة في معنى الحمد عن «محمود» كما تحمل صفة ثبات هذا الحمد. ومن ثمَّ فإن اسم «أحمد» قد جسَّد حمد الله مرارًا؛ والحمد لا يتأتي إلا استشعارًا لفضل المنعم، وأداء حقوقه بالقلب، واللسان والجوارح. بينما تضمن اسم «محمّد» طاقة مكثفة من حمد الناس وثنائهم تحقيقًا لما وصفه به سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُق عَظيم﴾.(١٠٥) فكأن الله سبحانه وتعالى قد جمع في اسمي «محمد وَأحمد» صفتيَ: المَجاهدة والاصطفاء، ومن ثمّ كانت هاتان الصفتان الينبوع الثر الذي انبثقت عنه محصلة المعاني التي وصف بها الرسول الكريم؛ الصفات التي جسدت فيه قيم وفضائل القرآن، طبقًا لما وصفته به السيدة عائشة: «كان خلقه القرآن» أو بما وصفه به أصحابه: «كان قرآنًا يمشي على الأرض.»

٣ - خصائص بلاغية

شكلت السمات البلاغية على صعيد الآية الواحدة مصدرًا خصبًا من مصادر التعبير القرآني، وبيان أثرها الدلالي في استلهام آفاق البيان المعجز، ومن هذه السمات ما نجده في:

أ - التوظيف الدلالي للإنشاء الطلبي

جسدت هذه الصيغة على صعيد الآية الواحدة لونًا من وجوه الإعجاز القرآني؛ إذ شكلت الآية الواحدة - على قصرها وإيجازها - منظومة لعدة ألوان بلاغية، صعّدت في النفس آفاق المعنى، وجلال الإعجاز؛ ولنصغ لقوله تعالى حكايةً على لسان النملة: ﴿حَتَّى إِذَآ أَتَوْاْ على وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ لاَ

---

(١٠٥) سورة القلم، الآية ٤.

يَحطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ . (١٠٦)

بعد تأمل هذه الآية، ومجاوزة حالة الانبهار بهذه المخلوقة العجيبة التي تكاد تكون أصغر مخلوقات الله حجمًا، وأضعفهم شأنًا، كيف نصبت من نفسها واعظة وحكيمة! بل إن حالة الانبهار بهذا الجانب تكاد تتضاءل عندما نعمق النظر بهذا التعبير الراقي الموجز الذي تضمن معنى الحذر والإشفاق، والإباء والذكاء، واختزل في ثناياه عدة ألوان بلاغية تفوهت بها هذه المخلوقة العجيبة جملةً واحدة؛ فالنملة عندما قالت: «يا» نادتْ، «أيها» نبَّهتْ، «النمل» عيَّنتْ، «ادخلوا» أمرتْ، «مساكنكم» نصَّتْ «لا يحطمنَّكم» حذَّرتْ، «سليمان» خصَّتْ، «جنوده» عمَّمتْ، «وهم لايشعرون» اعتذرتْ، فيالها من نملة حصيفة! فهي قد نطقت بحق، وحكمت بعدل! وهذه البلاغة الأدائية على لسان النملة جعلت بعض العلماء يعدون هذه الآية من عجائب القرآن. (١٠٧)

ب – ثنائية الأداء الوظيفي للاستفهام الإنكاري

نهض الاستفهام الإنكاري بوظيفة معرفية مزدوجة، وظيفة: الوعد والوعيد في آن واحد؛ هذه الوظيفة قد ألقت بظلالها المعنوية مبصِّرة بنعم الله ونقمه في حياتين متَّبايِنتين؛ دار الفناء، ودار البقاء، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(١٠٨) ولدى تأمل المواضع التي وردت فيها هذه الآية نجدها قد ترددت في مواضع النعم، كما ترددت عند ذكر النقم. ومن نماذجها في مواضع النعم قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾ ﴿وَالْحَبُّ

---

(١٠٦) سورة النمل، الآية ١٨.

(١٠٧) جاء في تفسير ابن الجوزي عن قوله تعالى: ﴿قالت نملة . . .﴾ «أي صاحت بصوت، فلما كان ذلك الصوت مفهومًا عبر عنه بالقول، ولما نطق النمل كما ينطق بنو آدم أجرى مجرى الآدميين فقيل: «ادخلوا» وألهم الله تلك النملة معرفة سليمان معجزًا له،» ابن الجوزي، *زاد المسير في علم التفسير* (بيروت: المكتب الإسلامي، د.ت.)، ٦: ١٦٢.

(١٠٨) سورة الرحمن، ١٣.

ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ . ﴾(١٠٩)

هذا جانب من النعم التي صورتها سورة الرحمن، ثم كررت بعدها صيغة الاستفهام الإنكاري، ﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. ولقد حسن التكرار تلافيًا للجحود والإنكار، لاسيما وأن الاستفهام الإنكاري تقريري في مضمونه، ويتلقى الإجابة التلقائية الاعترافية من المخاطب نفسه؛ «إذ كلما ذكر الله نعمة وبَّخ وأنكر على من كذب بها.»(١١٠)

وكيف للإنسان أن ينكر هذه النعم العظمى وقوام حياته ومعاشه منها وعليها؟! فالأرض بسطها المنعم لعباده ليستقروا عليها، وينتفعوا بخيراتها، من شتى أنواع النباتات المختلفة الطعوم والألوان والروائح؛ يقول صاحب *البحر المحيط*: «فيها فاكهة: ضروب مما يتفكه به . . . ونكَّر لفظها لأن الانتفاع بها دون الانتفاع بما يذكر بعدها. ثم ثنى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرتها، وهو التمر، لكثرة الانتفاع بها من: ليف، وسعف، وجريد، وجذوع، وجمار، وثمر، ثم أتى ثالثًا بالحب الذي هو قوام عيش الإنسان في أكثر الأقاليم، وهو البر والشعير، وكل ما له سنبل، ووصفه بقوله: ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ تنبيهًا على إنعامه عليهم بما يقوتهم من الحب، ويقوت بهائمهم . . . وبدأ بالفاكهة، وختم بالمشموم، وبينهما النخل والحب، ليحصل مابه يُتفكه، وما به يتقوت، ومابه تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة . . .»(١١١)

وإلى جانب ذكر هذه النعم العديدة تسوق السورة نفسها ألوانًا من صنوف النقم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُواْ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾(١١٢) ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا

---

(١٠٩) سورة الرحمن، الآيات ١٠، ١١، ١٢.

(١١٠) محمد محمود حجازي، *التفسير الواضح*، ط ٥ (القاهرة: مطبعة الاستقلال الكبرى، ١٩٧٥م)، ٢١: ١٢٧.

(١١١) أبو حيان النحوي، *البحر المحيط* (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، د.ت.)، ٨: ١٩٠.

(١١٢) سورة الرحمن، الآية ٣٣؛ هذه الآية فُهمت لدى بعض المثقفين بأن السلطان الذي جاء فيها يُراد به «سلطان العلم» وبخاصة بعد أن تمَّ ارتياد الفضاء. وقد أغفل هؤلاء قراءة الآية في =

تنتصران﴾ ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .(١١٣)

في هذه الآيات يتجه الخطاب القرآني إلى الثقلين: الإنس والجن، بصيغة الأمر الذي يخرج عن مؤاده الحقيقي إلى الأمر التعجيزي الذي لايستطيعون حياله الفرار من قضاء الله وعقابه إلا بقوة وقهر، وأنى لهم ذلك؟! لن يكون لهم هذا الفرار لما يتعقبهم ويرصدهم من العذاب؛ وأي عذاب؟! إنه صور من الهول والفزع فوق طاقة البشر! صور لايستطيع خيال الإنسان تمثلها، فكيف بمعاينتها، ومعايشة أهوالها؟!

وبعد أن رسم التعبير القرآني هذه الصور لصنوف النقم وردت صيغة الاستفهام الإنكاري لتأكيدها: ﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بمعنى: عن أي من هذه النعم العديدة والجليلة تجحدون؟! وهنا ينهض استفهام آخر من أغوار النفس يقابل الاستفهام الأول قائلاً: ماهي هذه النعم التي نوهت عنها الآيات؟! إنها ليست سوى صنوف من ألوان العذاب!! ومن خلال هذين التساؤلين ينهض سؤال ثالث يستفسر عن الحكمة في ذكر هذه النقم، ثم تقريرها بأنها من ألوان النعم؟!

والإجابة عن هذه التساؤلات تتجلى في أثر النظم القرآني على السياق الدلالي، بغية تعميق مقاصد التنزيل الحكيم؛ وذلك بتجسيد رحمة الله بعباده، ورأفته بهم، قبل أن ينالهم وبال أعمالهم، ليتاح لهم فرصة مراجعة النفس قبل فوات الأوان؛ فتبصيرنا بمآل أعمالنا في الحياة الدنيا لهي من أجلّ نعم المنعم علينا. وكما قالت العرب: من حذَّرك فقد بشرك.

وفي هذا الصدد من ذكر آيات النقم وتوظيفها في مجال النعم، يقول الخطابي:

= في سياقها العام مما ينافي هذا الفهم. وقد فسّر البيضاوي الآية من خلال سياقها فقال: «إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله، فارين من قضائه، فانفذوا أي فاخرجوا، «لاتنفذون» لا تقدرون على النفوذ «إلا بسلطان» إلا بقوة وقهر، وأنى ذلكم،» البيضاوي، *أنوار التنزيل*، ٨: ١٩٠.

(١١٣) سورة الرحمن، الآيات ٣٣، ٣٥، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٥.

وجريًا على عادة الرسل في احتواء أقوامهم، وصبرهم على تكذيبهم، وعدم اليأس من هدايتهم فقد أعادوا الكرة عليهم أملاً في هدايتهم، فلجأوا إلى تعزيز دعوتهم بمؤكدات أخرى علها تضع حدًا لإنكارهم، فجاءت الآية التالية تؤدي هذه الغاية بمؤكدات ثلاث: «إن التوكيد» «لام التوكيد» إلى جانب علم الله سبحانه الذي هو أقوى عوامل هذا التوكيد ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.(١٢٠)

وهذا التدرج في مراحل عرض الخبر الدعوي الذي جسدته الآيات، وصنفه علماء البلاغة بالطلبي، والابتدائي والإنكاري، وفق استجابة المتلقي قد أشار إليه صاحب *التسهيل* معللاً مقتضى عرض الآيات بين الإبلاغ والإنكار، فيقول: ﴿قالوا إنا إليكم لمرسلون﴾ إنما أكدوا الخبر هنا باللام لأنه جواب المنكرين، بخلاف الموضع الأول فإنه مجرد إخبار.»(١٢١)

إلى جانب أن هذا التدرج في عرض الخبر قد جسد سنة من سنن الحياة البشرية في الإعراض والإنكار إزاء الهداية والإرشاد، فضلاً عن طرحه للمنهج الراقي للتخاطب وأدب الحوار.

ومع صورة أخرى من صور التوكيد الخبري في إطار روعة النظم القرآني في الآية الواحدة نتلمس صورة أخرى من سنن الحياة البشرية إزاء الاستجابة الإيمانية، مما نجده في قوله تعالى: ﴿أَلآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾(١٢٢) وقوله تعالى: ﴿أَلآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ﴾.(١٢٣) هاتان الآيتان تمثلان فئة الضلال والنفاق إزاء الفئة الأولى فئة الجحود والنكران. الفئة الأولى تعلن الكفر بصريح القول. والفئة الثانية تبطن الكفر وتظهر الإيمان بزيف الكلام. ومن ثمَّ جاء وصفهم الدقيق بما يجلو خبايا نفوسهم بتعدد ألوان التوكيد فيهم للتنبيه على خطرهم وعظم فسادهم، فساقت الآية عدة مؤكدات هي «ألآ»

---

(١٢٠) سورة يس، الآية ١٦.

(١٢١) محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، *التسهيل لعلوم التنزيل*، تحقيق محمد عبد المنعم يونس وإبراهيم عوض (القاهرة: دار الكتب الحديثة، د.ت.)، ٣: ١٦١.

(١٢٢) سورة البقرة، الآية ١٢.

(١٢٣) سورة البقرة، الآية ١٣.

و«إن» والضمير المنفصل «هم» وتعريف الخبر في «المفسدون» و«السفهاء». وينوه وهبة الزحيلي عن خصوصية هذا التنوع التوكيدي وأثره الاجتماعي: إن إفسادهم اقتضى هذا التنوع في التوكيد، لعدم إدراكهم خطورة عملهم الذي أصبح غريزة لهم، مركزة في طباعهم. (١٢٤)

هـ- الدقة الأدائية للتصوير القرآني

تعددت وتنوعت ألوان التصوير القرآني، وشكلت عاملاً قويًا في تحريك المشاعر، وإعمال الفكر، وإثارة الخيال، محققة مقاصد القرآن بعمق وتنوع هذا التصوير. يقول سيد قطب عن مكانة التصوير القرآني ومظاهره: «إن التصوير هو القاعدة الأساسية في القرآن، وإن التخييل والتجسيم هما الظاهرتان البارزتان في هذا التصوير.»(١٢٥)

ومن مظاهر هذا التخييل والتجسيم ما نجده في قوله تعالى مصوراً به شجرة الزقوم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾. (١٢٦) ولدى تأمل هذه الآية يتبادر للذهن تساؤل: كيف يرسم الخيال البشري لشَجَرة الزقوم صورة للقبح يقيس بها على الأصل، وهو لم ير شجرة الزقوم، كما لم يشاهد رأس الشيطان؟! ثم كيف يُشبَّه مجهول بمجهول والصورة وظيفتها تفسير المجهول بمعلوم؟!

هنا تتجسد دقة التصوير القرآني بتوسيع دائرة الصورة حتى يذهب خيال الإنسان كل مذهب في تمثل صورة للقبح؛ لاسيما إذا كان الطرف الأول من الصورة مفردًا (شجرة الزقوم) والطرف الآخر متعددًا (رؤوس الشياطين)، فيكون مؤدى هذا التخييل صورة متناهية في القبح دون تحديد لهذا القبح، مما يُصعِّد طاقة الصورة التأثيرية، ووظيفتها الدلالية.

---

(١٢٤) وهبة الزحيلي، *التفسير المنير* (دمشق: دار الفكر، ١٩٩١م)، ١: ٨٤.

(١٢٥) سيد قطب، *التصوير الفني في القرآن*، ط ٧ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٢م)، ٨٧.

(١٢٦) سورة الصافات، الآية ٦٥.

ثالثا : النظم في المفردة القرآنية

شكلت المفردة القرآنية المبحث الثالث للنظم القرآني مشكلة مع المبحثين الآخرين مثلثًا دلاليًا يسبر أغوار النص القرآني، محققًا غاية التشريع الحكيم من خلال مسارات ثلاث : لغوية، صرفية، بلاغية.

١ - خصائص لغوية

من الخصائص اللغوية التي نتلمسها على صعيد المفردة القرآنية :

أ - مراعاة الألفاظ لمقام السياق

ولدى تأمل هذا الاستخدام تبهرنا دقة معاني المفردات في الآيات التي قد يتراءى فيها التعارض الظاهري لدى الوهلة الأولى ؛ بيد أن التأمل العميق لمعاني هذه المفردات، يُجلِّي أبعادها، ويكشف عن دقة استخدامها في سياقها.

ومن هذه الآيات ماورد في وضع الضوابط لعلاقة الابن المسلم بأبيه الكافر، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.⁽١٢٧⁾ ثم نجد ضوابط هذه العلاقة في آية أخرى : ﴿لاَّ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.⁽١٢٨⁾ هذه الآية قد توحي للذهن لدى القراءة الأولى أنها تعارض الآية السابقة ؛ فالآية الأولى تحث الأبناء على إحسان معاملة الآباء، والثانية تنهاهم عن ذلك. مع أنه لا تعارض بين الآيتين لدى التعمق الدقيق لدلالة المفردتين : «يوادون» في الآية الأولى و«معروفًا» في الثانية ؛ حيث يتجلى التناسق الدقيق بينهما ؛ فمعنى «الود» أن تكون بينك وبين المودود علاقة محبة. جاء في *لسان العرب* : «وددت الرجل أودُّه وُدًا : إذا أحببته.»⁽١٢٩⁾

---

(١٢٧) سورة لقمان، الآية ١٥.

(١٢٨) سورة المجادلة، الآية ٢٢.

(١٢٩) ابن منظور، *لسان العرب*، مادة : «ودد.»

أما «المعروف» فلا يشترط فيه المحبة ؛ لأن المعروف يبذله المرء لمن يحب، ولمن لا يحب ؛ قال صاحب *اللسان*: «المعروف النَّصَفَةُ، وحُسْنُ الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس.»(١٣٠) ومن هنا جاءت الآية الأولى تمنع إقامة علاقة ودية مع الوالدين غير المسلمين، لأن الإيمان لا يتجزأ، ومن ضوابط هذا الإيمان أن يكون الحب والكره في الله.»(١٣١) وهذا الحب والكره ينسحبان حتى على الأبوين، لأن حبّ الله سبحانه أولى من حبهما، وبتحقق هذا الحب تنعقد أواصر الإيمان، في حين لا يمنع عدم الحب من تقديم المعروف لهما، وإحسان صحبتهما، اعترافًا بفضلهما.

ومن المفردات التي تسطع بقوة أدائها الدلالي، موضحة مفهومًا عقديًا، من خلال ما قد يتراءى بينها من تعارض ظاهري ؛ ما نجده في مفردة «الهدى» فهي تأتي لتدل على أن الهداية أمر تكليفي يخضع لاستجابة ذاتية: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾.(١٣٢) كما وردت في مواضع أخرى لتدل على أن الهداية أمر توقيفي من الله سبحانه، لا مجال فيه للإرادة الذاتية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾.(١٣٣)

ولدى إعمال الفكر في الآيتين يتبدى التناسق التام بينهما من خلال فقه مفهوم الهداية العقدي الذي أوحت به الآيتان ؛ فالآية الأولى أشارت إلى هداية «الدلالة» وهي هداية عامة شاملة لجميع الخلق، هداية الدلالة للمنهج الرباني. والآية الثانية أشارت إلى النوع الثاني من الهداية ؛ هداية «المعونة» وهي طاقة إضافية تكون رافدًا لهداية الدلالة، والارتقاء بصاحبها إلى مرتبة سامية: مرتبة التقوى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(١٣٤) وهذه المرتبة من الهداية ترقى بأصحابها إلى مكانة أثيرة في

---

(١٣٠) ابن منظور، *لسان العرب*، مادة: «عرف.»

(١٣١) جاء في *صحيح البخاري*: «الحب في الله، والبغض في الدين من الإيمان»، انظر: محمد بن إسماعيل البخاري، *صحيح البخاري* (بيروت: دار الفكر، ١٩٨١م)، ١: ٨.

(١٣٢) سورة فصلت، الآية ١٧.

(١٣٣) سورة آل عمران، الآية ٧٣.

(١٣٤) سورة محمد، الآية ١٧.

الجنة : ﴿ . . وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَئَابٍ﴾ ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ﴾ . (١٣٥)

ب – الكثافة الدلالية للمفردة القرآنية

ترددت هذه السمة اللغوية بوضوح في كثير من المفردات القرآنية ، ومن هذه المفردات ما نجده في مفردة «الحمد» في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١٣٦) فهي قد أفادت إلى جانب حسن الافتتاح وروعة المطلع ، المبالَغَة في الثناء على الله سبحانه ، بما يليق بجلاله ؛ لأن «اللام» في الحمد تضمنت معنى الاستغراق ، (١٣٧) وهذا لا يتأتى لو جاءت اللفظة على الأصل ، بصيغة : (أحمد الله رب العالمين) .

٢- خصائص صرفية

نهضت الخصائص الصرفية على صعيد المفردة القرآنية بوظيفة دلالية واضحة المعالم عمّقت أهداف الكتاب الكريم . وقد تراءى ذلك في :

أ – البعد الدلالي لصيغ المبالغة

اتسمت صيغ المبالغة بمخزون دلالي عميق يتكافىء مع دقة التشكيل اللغوي للصيغة بمعناها التوقيفي الاصطلاحي ؛ وهذا ما نلحظه في اسمي الجلالة : «الرحمن» «الرحيم . »

ولدى إنعام النظر بهاتين المفردتين نجد أنهما مشتقتان من «الرحمة ، » إلاّ أن الصيغة الاشتقاقية لكل منهما حملت في ثناياها بُعدًا دلاليًا لم يتوافر في الأخرى ؛ فـ«الرحمن» تضمنت معنى عظيم الرحمة ؛ لأن «فعلان» صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ، ولا يلزم فيه الدوام كغضبان ، ونعسان . (١٣٨) أما صيغة «الرحيم» فتضمنت

---

(١٣٥) سورة ص ، الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

(١٣٦) سورة الفاتحة ، الآية ٢ .

(١٣٧) محمد علي الصابوني ، *صفوة التفاسير* (بيروت : دار القرآن الكريم ، ١٩٨١م) ، ١ : ١٢ .

(١٣٨) لأنها معدولة عن اسم الفاعل : راحم ، غاضب ، ناعس .

معنى دائم الرحمة، لأن «فعيل» تستخدم في الصفات الدائمة، ككريم، وظريف، فكأنه قيل «العظيم الرحمة الدائم الإحسان.»(١٣٩)

يقول الإمام الطبري منوهًا عن الخواص الدلالية للرحمن والرحيم: «هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه. وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعض خلقه . . . وقد خصّ عباده المؤمنين في عاجل الدنيا بما لطف بهم من توفيقه إياهم لطاعته، والإيمان به وبرسله، واتباع أوامره، واجتناب معاصيه . . . كما قال جل ذكره ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾ .»(١٤٠)

ومن المفردات ذات الكثافة الدلالية ما نجده على صعيد المعاني الاشتقاقية لمفردة «المُلْك» حيث نجد هذه الصيغة قد اختزلت عدة مراحل للملكية التي نجدها في اشتقاقات أخرى للمفردة؛ فمنها ما يأتي بمعنى «مالك» وهو المُلْك الذاتي للفرد، ويأتي منها «مَلِكْ» وهو الحاكم، ويأتي منها «مُلْك» وهو مالك من يملك. ولما كانت غاية التعبير القرآني التركيز على المفاهيم العقدية وترسيخها بالنفس الإنسانية، فقد جاء بصيغة الملكية من أصلها، لينبه الأذهان إلى أنه سيأتي اليوم الذي لايوجد فيه مالك سواه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ .(١٤١)

ب - الوظيفة الدلالية للإسناد الجمعي

شكلت صيغة الإسناد الجمعي ملمحًا بارزًا في تحقيق أهداف البيان القرآني، وذلك من خلال التلاحم الدقيق بين التشكيل الصرفي والمفهوم العقدي، بحيث يساند أحدهما الآخر. ويتجلى ذلك في التشكيل الصرفي لمفردتي: «نعبد» «نستعين» من خلال ورودهما بصيغة الجمع، مع أن المتلفظ بهما فردًا واحدًا. فلم يقل (إياك أعبد، وإياك أستعين) وحكمة هذا الإسناد الجمعي - والله أعلم - «للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك، فكأنه يقول: أنا يارب العبد الحقير الذليل، لا يليق

---

(١٣٩) الصابوني، *صفوة التفاسير*، ١:١٢.

(١٤٠) محمد بن جرير الطبري، *جامع البيان في تفسير القرآن* (بيروت: دار الجيل، والقاهرة: دار الحديث، ١٩٨٧م)، ١:٤٢.

(١٤١) سورة آل عمران، الآية ٢٦.

في لغة الضاد، حتى تتلاءم هذه الخصوصية مع صاحب الخصوصية الأعلى!

كذلك لم نجد في اللغة العربية اسمًا دخلت عليه التاء في القسم سوى اسم الجلالة: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾. (١٤٧)

د - الوظيفة الدلالية للفاصلة القرآنية

شكلت الفاصلة القرآنية سمة من سمات التلاؤم الصوتي، وروعة الأداء في النظم القرآني، وهذه الروعة الأدائية للفاصلة القرآنية نلحظها في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾. (١٤٨) في هذه الآيات حذفت كاف الخطاب في: «قلى، فآوى، فهدى، فأغنى» وهذا الحذف قد علله بعض المفسرين بأنه كثير للتخفيف رعايةً للفواصل. (١٤٩) إلا أن بعض المهتمين بالدراسات القرآنية من القدماء والمحدثين قد نوهوا عن أن للفاصلة القرآنية وظيفة دلالية تؤازر مهمتها الإيقاعية، يقول الرماني: «وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها.»(١٥٠)

وتعلل عائشة عبد الرحمن بأن حذف كاف الخطاب في «قلى» وما يليها هو حذف يقتضيه مقام الخطاب، وهو تجنب مخاطبة الله سبحانه رسوله في موقف المؤانسة بجفاف القول: «ولو كان البيان القرآني يتعلق بهذا الملحظ اللفظي فحسب لما عدل عن رعاية الفواصل في الآيات بعدها: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾

---

(١٤٧) سورة الأنبياء، الآية ٥٧.

(١٤٨) سورة الضحى، الآيات ١-٨.

(١٤٩) الزحيلي، *التفسير المنير*، ٣٠: ٢٨١.

(١٥٠) علي بن عيسى الرماني، *النكت في إعجاز القرآن*، تحقيق محمد خلف الله زغلول سلام، ط٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٦م)، ٩٨، مجموعة *ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني، والخطابي، والجرجاني*.

﴿وَأَمَّا بنعْمَةَ ربِّكَ فَحَدِّثْ﴾ . (١٥١) وليس في السورة كلها «ثاء» فاصلة، بل ليس فيها حرف ثَاَء علَى الإطلاق . . . ونرى – والله أعلم – أن حذف كاف من : «وماقلى» مع دلالة السياق عليها، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللطف، هي تحاشي خطابه تعالى رسوله المصطفى في موقف الإيناس بصريح القول «وما قلاك» لما في القلى من حسٍّ الطرد، والإبعاد، وشدة البغض . أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لايكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلاّ مع رجاء العودة، وأمل اللقاء . »(١٥٢)

ووفق هذا الدور الوظيفي ترددت جميع الفواصل في النظم القرآني، محققة دقة النظم، وعمق المعنى، وجمال الإيقاع .

رابعا : النظم في الاستخدام الحرفي

مثّل الاستخدام الحرفي المبحث الرابع من النظم القرآني وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم . وهذا الاستخدام قد تعدى حيزه الحرفي إلى التأثير على السياق النصي تأثيرًا قد يغلب على المعنى العام بما يقتضيه مقام السياق .

وقد توزع هذا المبحث خصائص ثلاث : لغوية ، وصرفية ، وبلاغية .

١ – خصائص لغوية

لعل من أبرز السمات اللغوية للاستخدام الحرفي على الصعيد اللغوي ما نلحظه في :

أ – الخصوصية الدلالية للحرف القرآني

تميز الحرف القرآني بوظيفة معنوية مكثفة بحيث لايقوم حرف آخر مكانه، من الأحرف التي قد ترادفه، أو تقترب من معناه . ومن أمثلة هذه الدقة الأدائية العالية أن الحرف يستقل بمفرده بطرح مبدأ عقدي ؛ وهذا ما نلحظه في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ

---

(١٥١) سورة الضحى ، الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ .

(١٥٢) عبد الرحمن ، *الإعجاز البياني*، ٢٥٠ .

في الأَرْض إلاَّ عَلَى اللَّه رزْقُهَا﴾ . (١٥٣) هذه الآية أفادت تجسيد صفة من صفات الربوبية وهي «الرزق» إذ ما من دابة على الأرض من إنسان وحيوان إلاّ وقد تكفل الخالق سبحانه بتهيئة أسباب رزقها؛ فكما كان هو خالقها كان هو رازقها. وهذا المعنى الدلالي لمفهوم عطاء الربوبية جسده في الآية الكريمة حرف «على» تجسيدًا دقيقًا، بحيث لا يؤدي هذا المعنى حرف آخر يوازيه في الوظيفة المعنوية؛ كأن يُستخدم حرف «عند» بدلاً من «على» علمًا بأن السياق يستقيم معنويًا وعقديًا وأسلوبيًا فيما لو جاءت الآية على هذا النحو: (وما من دابة في الأرض إلا عند الله رزقها). بيد أن التعمق الدقيق لكلا السياقين يكشف عن بونٍ شاسع بينهما، مما يتنافى مع مقتضى عطاء الربوبية الذي جسدته الآية؛ لأن استخدام «عند» لا يُلزم الأداء، فقد أقول «رزقك عندي ولكني سأحرمك منه.» أما لو قلت: «رزقك عليّ» فأنا ملزم أن أمدك به. والله سبحانه لا يلزمه شيء، ولكنه ألزم نفسه بنفسه تفضلاً منه وكرمًا.

ب - دقة الاستخدام العددي

شكل الاستخدام العددي في السياق القرآني نموذجًا من نماذج الإعجاز اللغوي الذي نقف إزاءه مبهورين، ليس فقط لأن مناط الإعجاز حرف واحد، إنما أيضًا لأن هذا الحرف قد استقل بنفسه ببيان هدف التنزيل الحكيم الذي قد يحتمل أكثر من تأويل؛ من ذلك ماجاء في آيتي سورة الزمر: ﴿وَسيقَ الَّذين كَفَرُواْ إلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إذَا جَآءُوهَا فُتحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتكُمْ رُسُلٌ مّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَات رَبّكُمْ وَيُنذرُونَكُمْ لقَآءَ يَوْمكُمْ هَذَا قَالُواْ بَلَى وَلَكنْ حَقَّتْ كَلمَةُ الْعَذَاب عَلَى الْكَافرينَ﴾ . (١٥٤) وقوله تعالى: ﴿وَسيقَ الَّذينَ اتَّقَواْ رَبَّهُمْ إلَى الْجَنَّة زُمَرًا حَتَّى إذَا جَآءُوهَا وَفُتحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالدينَ﴾ . (١٥٥)

---

(١٥٣) سورة هود، الآية ٦ .

(١٥٤) سورة الزمر، الآية ٧١ .

(١٥٥) سورة الزمر، الآية ٧٣ .

هاتان الآيتان الكريمتان تصوران جانبًا من يوم الحشر الأكبر بوعيده ووعده، حيث يساق المجرمون الأشرار كما يساق أشقياء الدنيا إلى المعتقلات مشيعين بالخزي والعار. ويساق المتقون الأبرار إلى دار النعيم المقيم، كما يساق العظماء الوافدون على الملوك مشيعين بالإجلال والإكبار.

وعلى الرغم من أن كلتا الآيتين قد جاءتا على النسق التعبيري نفسه، إلاّ أن آية أهل النار قد خلت من حرف «الواو» في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوابُهَا﴾ بينما وردت آية أهل الجنة متضمنة هذه «الواو»: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوابُهَا﴾. (١٥٦) فما الحَكمة من مغزى وجود «الواوَ» في آية أهلَ الجنة؟!

ولعل أقرب الإجابات التي تتبادر إلى الذهن عن ورود هذه «الواو» هي روعة وجلال الموقف، كما نوه عن ذلك بعض المفسرين: «والحكمة في زيادة الواو هنا «وفتحت» دون التي قبلها أن أبواب السجن مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح ثم تغلق عليه فناسب ذلك عدم الواو فيها بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها». (١٥٧)

بيد أن الثعالبي قد ذكر سر استخدام هذه الواو بما يتلاءم مع الدقة الأدائية العالية للنظم القرآني وما يتفق ولغة العرب في استخدامها قائلاً: «. . . ومنها واو الثمانية كقولك: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، وفي القرآن: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ (١٥٨) وكما قال تعالى في ذكر جهنم: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بلا واو. لأن أبوابها سبعة، ولما ذكر الجنة قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا

---

(١٥٦) ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية: «لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره: إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من نعيم. وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل.» إسماعيل بن كثير، مختصر تفسير *ابن كثير*، تحقيق محمد علي الصابوني (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٩٣م)، ٣: ٢٣٢.

(١٥٧) *حاشية الصاوي على تفسير الجلالين* (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٧م)، ٣: ٣٨١.

(١٥٨) سورة الكهف، الآية ٢٢.

أجْمَعِينَ﴾ .(١٧٦) فهذا التضعيف قد عمّق مؤدى الفعل في الذهن والشعور ليصبح الفعلَ القبيح أكثر قبحًا، وأشد إيلامًا! بيد أن هذه الصورة القبيحة والمؤلمة تتصعد إلى ذروتها عند ما يكون هذا التقتيل والتذبيح للأبناء ثمرات الأكباد ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾(١٧٧) ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾(١٧٨) ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ .(١٧٩)

ولمَا كانت ماهية التضعيف الحرفي زيادة فاعلية الحدث، وتصعيد صورته في النفس قبحًا وإيلامًا فقد كان جزاء من يسعى في الأرض فسادًا، ويحارب شريعة الله ورسوله عنادًا وتكبرًا، ليكون هذا العقاب جزاءً للمذنبين، وعظةً للمعتبرين: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلاَفٍ﴾ .(١٨٠) كذلك كان جزاء المنافقين والمرجفين الذين يشيّعون الأخبار الكاذبة في المَدينة: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ .(١٨١)

وإلى جانب ذلك نجد هذا التضعيف الحرفي يتردد في سياق آخر من مواضع تصعيد الأفعال القبيحة المستنكرة، وهي تكذيب دعوة الرسل؛ فقد أنكر سبحانه على بني إسرائيل فعلهم القبيح: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ .(١٨٢)

---

(١٧٦) سورة الأعراف، الآية ١٢٤.

(١٧٧) سورة الأعراف، الآية ١٤١.

(١٧٨) سورة البقرة، الآية ٤٩.

(١٧٩) سورة الأعراف، الآية ١٢٧.

(١٨٠) سورة المائدة، الآية ٣٣.

(١٨١) سورة الأحزاب، الآية ٦١.

(١٨٢) سورة البقرة، الآية ٨٧.

ثم تتوالى صور التضعيف الحرفي للأحداث المفزعة، بيد أن هذه الصورة أشدها فزعًا: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ .(١٨٣) فنار جهنم يزداد حرها وهي تستقبل روادها، حتى يصل إلى درجة اللهيب والهيجان، جاء في *مختار الصحاح*: سعَّر النار والحرب: «هيجها وألهبها». وليس هذا فحسب، بل تزداد الصورة هولاً وفزعًا عندما ترد هذه الصورة بصيغة الفعل المبني للمجهول «سُعِّرت» حتى يأخذ الفزع بالنفس كل مأخذ، وهي تحاول جاهدة تحديد الفعل بقدر فعل الفاعل وجبروته!

ثم تطالعنا صورة أخرى من صور التضعيف الحرفي تقابل الصورة الأولى، لتفتح أمامنا آفاقًا مشرقة من خلال وظيفتها التكثيرية، ولنرهف السمع لهذا الخطاب الإلهي: ﴿وإني لغفَّار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا﴾(١٨٤) ﴿رَبُّ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾(١٨٥) ﴿وأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إلى العَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ .(١٨٦)

في هذه الآيات الكريمة ترتقي مهمة التَضعيف إلى أجواء علوية، لأنها صادرة عن ربِّ القدرة والمغفرة، لتشيع الأمل والرجاء في النفوس، ليس فقط من خلال إتاحة الفرصة للمغفرة بل بكثرتها ودوامها، لأن صيغة التفضيل تفيد إلى جانب كثرة الحدث دوامه. ومن ثمَّ تؤدي هذه الخصوصية حماية المجتمعات من الشرور والآثام؛ لأن الشرير إذا علم أن الله لن يغفر له تمادى في شره، ووسع دائرة شروره وجرائمه في آفاق مجتمعه.

٣ - خصائص بلاغية

ومع مواكبة أثر النظم القرآني على الصعيد الحرفي نتلمس أثر هذا النظم أيضًا من خلال السمات البلاغية التي حققت قدرة أداتية عالية، من ذلك ما نجده في:

---

(١٨٣) سورة التكوير، الآية ١٢.

(١٨٤) سورة طه، الآية ٨٢.

(١٨٥) سورة ص، الآية ٦٦.

(١٨٦) سورة غافر، الآية ٤٢.

القرآن كله، محققًا التآلف اللفظي، والتناسق المعنوي، والتشكيل الصوتي الإيقاعي، مما جعل هذا القرآن ذا نسيج خاص، كل كلمة لها وظيفتها الدلالية والإيقاعية، «بحيث لو استبدلنا بها كلمة أخرى فسد المعنى، وفقدت العبارة سر إيحائها، وذلك ما يحسم الخلاف في قضية اللفظ والمعنى». (١٩٩)

وعلى هذا فقد حقق النظم القرآني بصورة تعبيرية فريدة لم يُعهد لها نظير في العربية؛ وقد وفق الرافعي في التنويه عن سر التعبير القرآني وجلال إعجازه: «نزل هذا القرآن بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره . . . وهو في كل جزء من أجزائه، وفي أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خُلقت سماء غير السماء، وبُدِّلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهرها على بواطن أسرارها . . . ولهذا بهتوا حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر، أم صوت المستقبل، أم صوت الخلود، لأنها هي لغتهم التي يعرفونها، ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم، ورقة غير ما انتهى إليهم من أمر الحاضرة». (٢٠٠)

وإلى جانب اطلاعنا على هذا النظم القرآني المعجز فإن الدراسة قد طرحت لونًا آخر من وجوه الإعجاز تجلى في أن كل جزئية من جزئيات التعبير القرآني حتى على صعيد الاستخدام الحرفي كانت له خصوصية دلالية جلَّت آفاق الكتاب الكريم وعمقت مقاصده، إذ أفصحت في مجملها عن مفاهيم عقدية رسّخت العقيدة، وصححت مسارها، وقضايا اجتماعية نظمت حياة الفرد والمجتمع، وظواهر لغوية أبانت عن بلاغة التعبير في لغة التنزيل الحكيم.

وهذا الجانب من الإعجاز التشريعي - إن صح هذا التعبير - قد تجلى من خلال النماذج العديدة التي طرحتها الدراسة، وتآلف فيها الإعجاز اللغوي مع التشريعي في وحدة واحدة من التعبير لبيان أثر القانون الإلهي في حياتنا المعاصرة، بوضع ضوابطها

---

(١٩٩) عائشة عبد الرحمن، *التفسير البياني للقرآن الكريم*، ط٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨م)، ٨.

(٢٠٠) مصطفى صادق الرافعي، *إعجاز القرآن والبلاغة النبوية*، ط٨ (بيروت: دار الفكر العربي، د.ت.)، ٧٤.

وتنظيمها لتتم مهمة الاستخلاف، وإعمار الحياة بمنهج الله.

ومن منطلق هذه الثوابت سيبقى القرآن المعجزة اللغوية الخالدة، المعجزة الماثلة في نظمه وتشريعه وقد هيأ الله لهذا النظم الحفظ، ليبقى الإعجاز محفوفًا بالحفظ، ليكون هداية السماء للأرض، ينير للبشرية مسالك الحياة الفاضلة، لتنظم حركة الحياة بقانون السماء.

Quranic Structure and Its Effects on the Aims of the Chronological Revelation

Raja Mohammed Odeah

Assistant Professor, Department of Arabic,
College of Arts, King Saud University,
Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. This study addresses the specificity of the Quranic structure and its congruity with elucidating and deepening the aims of the Holy Book. The congruity materializes at the level of the specificity of linguistic, morphological, and rhetorical dimensions. Concentrating on the functional signification, the study traces this specificity at all levels of expression, even at the level of a single letter. Such congruity enhances the relation between the expression and the occasion in which it takes place; it enhances further the correlation between structure and the aims of legislation by means of which both become one single texture. Thus, congruity becomes apparent on the levels of the general context, a single verse, a single word, and even a single letter. The study, therefore, aims at drawing the objectives of legislation through Quranic structure, revealing thereby concepts of faith, social regulations, ethical values, and linguistic criteria: all coherently rendered in an autonomous unity of expression. Such is the ideally harmonious way of human life according to the laws of Allah.